

اللغة مؤسسة وظيفتها الضبط الإجتماعي

د. عبد الله ساقور

جامعة باجي مختار - عنابة

مستخلص

لماذا تتفاوت المواقف من الكتابات حول المؤسسات الاجتماعية، حيث يختار البعض منها ويركز عليه ويتحاشى البعض الآخر؟ تساؤل مشروع، إذ يعترض البعض على اعتبار ضم اللغة مؤسسة اجتماعية من منطلق أنهم يفهمون المؤسسة على أنها تتكفل بتنظيم العلاقات الاجتماعية الواعية بين الناس فحسب.

يوجد قصور في فهم العلاقة الجدلية القائمة بين الثقافة والمجتمع على المستويين النظري والميداني؛ إذ يخلق البشر معانيهم الخاصة، ولا يتردد الواحد منهم في استخدام اللغة عند صياغة ديباجة مختلف المؤسسات، سواء أكانت مؤسسات مدنية أم دفاعية مستحدثة بقوة القانون الذي يضمن

لها صفات الانتظام والتواتر والشرعية. وهو جانب يفيد تغلغل رجال القانون وصناعه في الحياة الاجتماعية لأمة ما. وهو موقف مشبع باختلال بل بتزييف للحياة الاجتماعية الفوارة وتموقع اللغة الحية فيها.

تحاول هذه الورقة مناقشة اللغة باعتبارها مؤسسة اجتماعية من خلال تبيان أهميتها من تصوير عالمتنا من جهة، وما تتميز به من خواص الإظهار "Externality" والموضوعية "Objectivity" والإكراه "Coerciveness" والسلطة الأخلاقية "Moral Authority" والتاريخانية "Historicity" وتكون مشفوعة بنقاش يتخذ من ارتباط اللغة العربية بالدين الإسلامي منطلقاته، بحثاً عن النهضة والاستقلال المنشودين من جهة أخرى.

الكلمات الرئيسية : اللغة، المؤسسة، الضبط الاجتماعي:

Abstract :

This paper steams up from what is an Institution? The case of arabic as a living language imposed by moslem society upon the conduct of individuals. The holy qur'an manifesto is thus, there for all to read (in Arabic) understand and apply to the details of our daily conduct. However, this interplay between arabic and islamic tentes is visualized in two exploded views which are manifest in a cultural system that provides meanings and purposes in some ultimate sense by creating a conception of reality that can be regarded as sacred, holistic and transcendent.

اللغة مؤسسة وظيفتها الضبط الاجتماعي :

"اللغة بيت تعيش فيه روح الانسان ... وبها تنمو خبراتنا الذاتية وخبرات الآخرين طول حياتنا في هذا العالم المحيط ...، حتى لو تصورنا عالماً خارج

عالمنا هذا، فنحن لا نملك وسيلة سوى اللغة للتعبير عن هذه التصورات ووصفها، وعليه، فإن اللغة هي المؤسسة التي تسمو على بقية المؤسسات الاجتماعية ... فهي تلك اليد الطولى التي يتسلط بها المجتمع علينا،،"

(كارل كروس: كاتب استرالي)

في سياق الحياة الاجتماعية، ينتصب التشكيل النظامي "Institutionalism" قائماً لأنماط مستقرة للتفاعل الاجتماعي، ترتكز على جملة من القوانين واللوائح، وما تفرضه من عادات وطقوس للقيام بسلوك معين، تمليه الأدوار الاجتماعية المحددة ويترتب على مخالفتها جزاءات مادية وأخرى معنوية ... وتغدو المؤسسات الاجتماعية بها "عبارة عن طرائق التفكير والعمل" يخلقها المجتمع ويشارك فيها الأفراد عن إدراك وتفكير، ويلتزمون اتجاهها بالخضوع والطاعة لأنها من مقومات تراثهم الاجتماعي. بهذا المعنى، فهذه (المؤسسات) عبارة عن برامج "programmes" يفرضها المجتمع لضبط سلوك الناس داخلها .. وهو تعريف لا يثير للوهلة الأولى استهجان المستمعين، ولا يعارضونه لارتباطه الوثيق بالمفهوم العام للمؤسسة التي نتعامل معها يوميا كالجامعة والمستشفى والمدرسة الخ.. من جهة، أو تلك المفاهيم المتعلقة بالمؤسسات التي تنشطها مختلف الجماعات الرسمية التي توجه الناس من جهة أخرى، نحو تحقيق هدف محدد، كمؤسسات الدولة والاقتصاد أو النظام التربوي الذي يخلق في فضائها كائنات، ميتافيزيقية، وإذا طلب منا تعداد أهم المؤسسات المجتمعية "Societal" فإننا لا نتردد في سرد هذه المؤسسات. ونكون بذلك على حق أيضا لما يشيع بين الناس من أفكار للدلالة على تلك العلاقة القانونية التي

يتعرف الناس بموجبها على هذه المؤسسات. ربما يعود هذا إلى ما يتمتع به رجال القانون وصناعه من نفوذ في الحياة الاجتماعية، لكن المنظور السوسيولوجي تبدو فيه معاني المؤسسة مختلفة. ولهذا السبب ستكون المرافعة عن مؤسسة اللغة الحية ودورها في الضبط الاجتماعي مشروعة...

يجدر التذكير بأن جميع المؤسسات، مهما كانت طبيعتها، هي مؤسسات قائمة على نمط معين من اللغة : فمؤسسات الدولة أو الاقتصاد أو النظام الجامعي وغيرها... قائمة على أساس من اللغة، تصنيفا للمفاهيم وخطابا عاما موجها للأفراد ليضبطوا سلوكهم وروح هذه المؤسسات ومواثيقها... وبلغة أكثر دقة، تبدو المؤسسة الاجتماعية بشكل عام قائمة على عالم من المعاني "Meanings" المشتقة بشكل خاص من اللغة التي يمكن ضمان بقائها حية في أذهان أعضائها من خلال اللغة الحية الحاملة لهذه المعاني والمفاهيم "Meanings Carrier" وهو أمر يحتم علينا تبينان الوظائف المعرفية للغة من خلال:

1. اللغة وسيلة للإدراك الحسي :

يصادف الإنسان مؤسسة اللغة اللحظة التي يبدأ فيها اتصاله مع العالم الخارجي. وهو حكم قد يثير استغراب المستمع. فعند مساءلة هذا المستمع عن أول مؤسسة تقاعلية للطفل، فإنه سرعان ما يشير إلى مؤسسة الأسرة وهو على صواب في ذلك. حيث أنه لاحظ وخبر هو ذاته طفلا، أن غالبية الأطفال مثله تبدأ لديهم عملية التطبيع الاجتماعي من خلال مؤسسة الأسرة التي هي نسق فرعي "System-Sub" من مؤسسة واسعة هي نسق القرابة "Kinship". وهو نسق تقليدي يبين فيه الأدوار والمراكز التي يلتزم بها

الأقارب المتصلون بعضهم ببعض عن طريق الزواج، أو المنحدرون من أصل واحد والتي تحكم سلوكهم ...

وبذلك تعد مؤسسة الأسرة ذات أهمية جوهريّة في حياة الطفل الذي هو غير واع بأهمية القرابة، ولكنه يغدو أكثر وعياً بها من خلال ما يختبره يومياً بتفاعله مع إخوانه وأخواته من جهة، والمتصلين به من الأقارب المحيطين به من جهة أخرى. وكلما تقدم في السن، فإنه يعي أدوار هؤلاء الأقارب ومراكزهم وما يفعلونه. وبالتفاعلات النمطية المتكررة يدخل هؤلاء الأقارب في الواقع الاجتماعي الذي هو العائلة "Family" لكن الطفل يدرك ما حوله من الأطفال الآخرين عندما يشرع في بناء مصفوفة "Matrix" من المقارنات فيما بينهم. وهي عملية في غاية التعقيد، غالباً ما تحدث أثناء مراحل الطفولة. وبالمقابل، سيصطدم الطفل بمعوقات اللغة، وغالباً ما تحدث له بعض المتاعب في بداية حياته، وتمتد إلى فترة المراهقة. ويزداد النمو اللغوي لديه بتأثير المثيرات المحيطة به، وما تتضمنه من حقائق متعددة تفوق عالمه وخبراته المتواضعة جداً. وبواسطة اللغة، يتشكل الطفل ذهنياً ويغدو كائناً عاقلاً، يدرك بعض مكونات ذلك العالم الفسيح الموجود خارج البيت. هذا العالم يؤطره الكبار، ويسعون بقوة وبهدي مما حصلوا عليه من خبرات ومهارات للتكيف معه. للإشارة هنا، تكون الحقائق مرتبطة أصلاً بمفاهيم لغوية، تبدو متباينة في عالم الأطفال؛ ففي المجتمع البريطاني مثلاً سجل (Berstein, 1965, pp.145 ff) تبايناً في مستويات التحصيل اللغوي بين الأطفال المنحدرين من الطبقة الوسطى وبين نظرائهم من الطبقة العاملة.

يتضح مما تقدم أن عالم الطفل يتشكل من عبارات لغوية، اندمجت فيه بفعل إحدى طرائق التعلم، سواء تعلق الأمر بالمعاني، أم المفردات، أم

المفاهيم الحقيقية للأشياء من طريق اللعب. وتبدو تجربة الطفل مع الأشياء المادية ذات أهمية كبرى، حيث ينتظم العالم في ذهنه، ويقترب بصور محسوسة مستمدة من تسمية الأشياء، ويتعداها إلى فهم العلاقات الظاهرة بين هذه الأشياء، فالطفل لا يتردد في استخدام الطاولة ليتسلق الشجرة إذا أراد ذلك، ويمكنه استخدام الهاتف لطلب النجدة في حالة السقوط من فوق الشجرة... تلك هي تجارب يومية مادتها الأولية "مفردات لغوية" تمكن الطفل من تخزين معلومات وحذق مهارات ويتشبع بوجدانيات ذات دلالة خاصة لتسير عالمه المشكل أصلا من أحاسيس مباشرة من جهة، وتفعيله لمجموع العمليات العقلية المختلفة كالذكر والتخيل والحكم من جهة أخرى، فضلا عن ذلك، يقوم الطفل بتصنيف الأشياء والمحيطين به من الناس ويعطيها معايير وقيما للدلالة على ذلك الإدراك الاجتماعي " SOCIAL PERCEPTION" في تصورات هذه الأشياء ولمنتجها، وما يتعلق بها من صفات وما يترتب عليها من وقائع وعلاقات اجتماعية فوارة. فأما غالبا ودودة، تتربع على العرش معصومة من الخطأ. بالمقابل، إن ما يقوم به أحد أقرانه من سلوك اعتباطي، أو ما ينتابه من غضب أو إيذاء للجيران يستطيع أن يحكم عليه بأنه غير معصوم. وتنمو بذلك المقاومات لديه : الأنا الاجتماعي/ مقابل الأنا النفسي، أي من خلال اللغة وحدها يتعلم الطفل أن الأم دائما على صواب¹، في حين أن الطفل الغضوب سيتعرض للعقاب. بذلك تتعدد وتنمو الخبرات اليومية لديه، وتمارس اللغة فعلها وتخزن هذه المقترحات أيضا لديه لأنها جديرة بالتصديق حتى وإن، غابت مبرراتها، أو صعب عليه القيام بالبرهنة التجريبية عليها. هذا يقود إلى استقرار الأدوار

1. يجب أخذ هذا الحكم على أنه نسبي إذ يقر كثير من الأطفال في قرارة أنفسهم تارة وجهارا تارة أخرى أنهم لا يوافقون على أفعال وأقوال أمهاتهم كلما تقدموا في السن.

من خلال وسائل لغوية محضة يستخدمها الطفل، ويتعرف بها على الأدوار من خلال وسائل لغوية محضة يستخدمها الطفل، ويتعرف بها على الأدوار الاجتماعية والأنماط السلوكية المتكررة عند الآخرين، سلوك الأولياء والأقارب بسرعة، وتعلق بذهنه من خلال التفاعل الاجتماعي معهم من خلال اللغة وحدها. وهو ما يجعله يطلق عديد الألفاظ في مواقف مختلفة ووفقا لأفعال محددة، وما يرتبط بها من معان.

باختصار، تبدو وظيفة اللغة واضحة عندما يعبر فلان ما عن موقف مضاد اتجاه الطفل، فليقابله هو بمعنى آخر ولكن له دلالة قوية: احذر، نحن هنا، أنا قادم ... وبذلك الجسر اللغوي يردم تلك الهوة الفاصلة بين عالمي الصغار والكبار، حيث تفيد اللغة تباين الأدوار.

2 . اللغة وسيلة لتفسير وتسويغ الواقع :

يبدو عالم الأطفال مشكلا اجتماعيا بدلالة الأدوار فقط، والتي تتسع إلى عالم أكثر رحابة، عاكسة صورة العالم الفسيح إلى عالمه المحدود. وتمثل الأدوار بحق خبرة سابقة، مثلما يشير إميل دركايم، فعندما يقوم ولي بهذيب ابنه¹ غالبا ما يكون ذلك باللغة الكلامية، فما هو محتوى الكلام؟ فاللغة الكلامية لهذا الولي تفيد الضيق الذي يشعر به اتجاه تصرفات ابنه، فالحديث هنا تسويغ وتفسير لعملية الجزاء (العقوبة) الذي يتخذ عدة صور للسلوك التقليدي "Manners" كالحركات والإيماءات التعبيرية التي يتميز بها الولي ويكررها، حيث ترتبط ارتباطا وثيقا بذهن الطفل. وقد يتخذ المسار

1. التهذيب : تخلص المرء من عيوبه عن طريق تعديل السلوك وتقويمه لتحقيق التكيف لمسيرة الحضارة

العقابي منحى دينيا كالعقاب من الله مثلا أو ما تفرضه ضوابط الآداب العامة التي لا يجوز مخالفتها. وعليه فإن تفسير السلوك التقليدي لهذا الولي أو ذاك تجاه الطفل المشاغب يرتبط بشكل درامي أيضا بتنظيم مختلف المؤسسات لأن الولي المحاسب/المعاقب يمثل النسق الاجتماعي بأكمله (السلوك الجيد السوي هو دور اجتماعي للولي يجسده في سلوكه مع طفله، وهو ما يتطابق مع ما للمؤسسات الاجتماعية من وازع أخلاقي "ضبطي" يتطلب منه المحافظة عليه) بذلك تقع اللغة في مواجهة الطفل في كل واقعه المحيط؛ فكل ما يخوضه هذا الطفل من تجارب تتراكم لديه في شكل بنائي على أساس أنها "حقائق" مستمدة من الواقع، وقع تمحيصها وتم تخزينها في ذاكرته. وهي سمة يشترك فيها الطفل مع غيره من الكبار. ذاك ما يجرنا إلى تبيان خصائص اللغة.

خصائص المؤسسة الاجتماعية : اللغة أنموذجا

الخاصية الأولى : الإظهار/التجسيد "Externality"

بادئ ذي بدء يجب التفريق في اللغة بين اللغة الحية "Living Language" واللغة النموذجية أو الرسمية "Standard Language" فالأولى لا تعني لا الفرنسية ولا الإنجليزية ولا حتى الأسبانية كلغات واسعة الانتشار في العالم وتهيمن عليه، بل نعني في هذه الورقة ما يفيد الصفة الاتصالية الرئيسية بين مجموعات السكان الذين يعيشون في منطقة محددة أو إقليم¹ كبوسعادة مثلا

1. منطقة / إقليم — Region/Area : مصطلح حيزي "Spatial" واجتماعي "Social" يفيد التجانس الجغرافي من حيث الخصائص السياسية والاجتماعية في تمييز الإقليم الشكلي.

أو بجاية، وتختلف بصورة أو أخرى عن اللغة الرسمية المستعملة في الدوائر الحكومية كالقضاء والكتابة والمدارس والجامعات.. هذان النموذجان من اللغة يقعان خارج الذات المتأسسة والتي يستوجب الاعتراف باختلافها البين مع واقع الذات المدركة لهذا الواقع المحيط، عن طريق ما تتمتع به من أفكار ومعلومات ووجدانيات وتخيلات... تلك هي خاصية مستقلة إلى حد ما عن مكونات المؤسسة الاجتماعية التي تقع خارج الواقع الذاتي الخام. فعند الحديث، يقوم المتحدث، بما يشبه عملية التفرغ "Throwing Out" للأشياء التي تعبر عن الذات المتحدثة ليس بمعنى تلك الأصوات الصادرة من الحلق فقط، وإنما ما تستهدفه اللغة من تبليغ لخطاب ذي معان محددة، وهذا التفرغ هو المصطلح المناسب والجيد لعملية الإظهار أو التجسيد "Externality" وهو نتاج المجتمع وليس من يتحدث بهذه اللغة أو تلك. فاللغة العربية مثلا، لم تكن وليدة وعي متحدث ما بها، وإنما هي موجودة قبل وقت الحديث بها، عند الاستعمال، وهي تجربة خارجة عن إرادة المتحدث وحتى إرادة المشتركين معه في الحديث بها.

باختصار، تبدو اللغة هنا كحقيقة خارج الذات المعبرة عندما باشرت تعلمها في الصغر.

الخاصية الثانية : الموضوعية "objectivity"

للمزيد راجع :

- Sutton, k (1981) Algeria A Center Down Development state capitalism and emergent decentralization In Stroh, W.B And Frazer Taylor (ed) development from a above or below? London, pp 351-75.

- Stroh, w and Todthing E (1978) spatial Equity. Some Anti theses to current regional development doctrine papers and proceedings R.S.A. (1977)

تقوم المؤسسة الاجتماعية على صيغ عامة تعبر عن ذاك الجهد المبذول الذي يقر أن أغلبية الناس العاقلين بأنها حقيقة بادية للعيان ومعروضة بشكل منطقي وثابت ويبدو الثبات "certitude" هذا موقفا معرفيا يقوم على الأدلة الأكيدة ولا يلحقه أدنى شك ويفرز نوعا من الإدراك والتفسير . وهو موقف معرفي بالأساس، ويفرز نوعا من الإدراك أو التفسير الناتجين عن التحيز الثقافي "Cultural Bias" للفرد والجماعة والقومية، وتغدو بذلك الموضوعية أكثر من ضرورة لتصويب الأخطاء ومنع الشطط الفكري، وتحقيق أكثر التعميمات العامة حيادا في ضوء المعرفة المتوافرة... أي أن هناك من يستخدم اللغة استخداما سليما، وآخر يستعملها استعمالا رديئا، وهناك من يعبر بعربية جيدة، وهناك من عربيته ضحلة. وهذا الآخر حكم موضوعي، ويبقى كذلك حتى - ظن المتحدث بالعربية - أن قواعد النحو على غاية من التعقيد...

وعليه، فإن الأمر يتطلب منه مقارنة ذلك بعقلانية من خلال عملية تنظيم لغته، وفي غالب الأحيان، قلما ينتبه المتحدثون بلغة ما إلى ذلك من حيث قبولهم اللغة مثلما يقبلون وقائع موضوعية أخرى في تجاربهم اليومية. فموضوعية أحدا تجعل لغته أكثر متانة وقدرة على التعبير. فلقد أورد عالم نفس الطفل السويسري جون بياجه " J. Piaget " قصة ذلك الطفل الذي سئل إن كان بإمكان المرء الاستغناء عن مصطلح "الشمس" وإحلال آخر بديلا عنه؟ فرد الطفل: لا سيدي، فعقب السائل بطرح سؤال آخر على الطفل، كيف حصلت لك المعرفة بذلك؟ فاحتار الطفل في البرهان لكنه سرعان ما تقطن بتوجيه نظره إلى السماء قائلا: طيب سيدي، أنظر إلى السماء وستجد

الشمس قرصا. وهو ما يؤكد مقولة "باشلار" حيث تعني الموضوعية لديه القطيعة مع العواطف والحس المشترك واللغة التي جعلت تلقاء واقع الانطباع الأولى.

الخاصية الثالثة : قوة الإكراه "Coerciveness"

تتمتع المؤسسة الاجتماعية بقوة الإكراه، إذ يجبر الأعضاء على الانصياع لها، بحيث نجد الطفل في وسط عائلي مثقف يعامل برفق، وهو يتلقى تصويبات لغته، وعن اقتناع بذلك مثلما تقرر قواعد اللغة العربية مثلا. وتستمر هذه المعاملة "القهرية" مع الطفل عند انتقاله إلى المدرسة الثانوية. فقد يستخدم المدرس بعضا من أساليب الإكراه للطفل الذي "يعتدي" على قواعد اللغة كاستخدام العقاب البدني أو التبخيس المعنوي أمام الزملاء في القسم وهو موقف يتناقض مع جوهر التربية الحديثة ولكنه واقع معيش. كما يشعر الراشد أيضا بالاضطهاد "Persecution" فقد يشعر أستاذ جامعي أيضا بالحرَج من بعض طلابه وهم يقومون بتصويب لغته. وقد يترتب عن ذلك أن يفقد التلميذ في المدرسة صداقة تلميذ أو تلميذة لأنه لا يحسن الحديث معه أو معها، وقد يفقد الأستاذ الجامعي منصبه إذا كان لا يحسن لغة التدريس وهكذا.. ففي الولايات المتحدة الأمريكية دعا عدد من أساتذة الفلسفة في الجامعات الأمريكية العريقة إلى بعث نوع من الابتكارات العلمية "Scientific Cater" من خلال الاستخدام الخاص للغة الإنجليزية الخاصة بالفلسفة لإبراز وجودهم في المجتمع كنخبة لها وزنها في الحقل الثقافي الجامعي وحماية أنفسهم من أي تعسف من جهة أخرى أنظر: (Gelnner, E 1964) لكن قوة الإلزام هذه التي تتمتع بها المؤسسات المجتمعية لا تعني أنها لا تخضع للتغيير الذي هو أحد السمات الاجتماعية

المعاصرة، لأن الناس اليوم لا يتوقفون عن اجترار "Ruminating" الكلام. فلو كف كل الناس اليوم في الجزائر عن الحديث باللغة العربية من منطلق أنها، مؤسسة اجتماعية، فلن نجد لها أثرا يذكر في اليوم الموالي¹.. بلغة أكثر دقة، يلاحظ اختلاف في نوع موضوعية وجود اللغة العربية الذي يتوقف حصرا على عدد الناطقين بها عندما يعبرون عن تطلعاتهم الذاتية والمعاني المبطنة لها وبواعثهم.. وهو واقع يخضع للتغير باستمرار على خلاف موضوعية الظواهر الطبيعية المتماثلة². فلنتصور أن أحدنا يقوم بدور

1. حدث هذا عندما احتل الفرنسيون الجزائر سنة (1830) حيث ورد في تقرير اللجنة الإفريقية عام (1830) وما تفتش من حال الطبيعة الأولى من مظاهر مخزية حيث ورد: "لقد حططنا ممتلكات المؤسسات الدينية، وجردنا السكان الذين وعدناهم بالاحترام..." هذا العنف الرمزي ضد الإسلام والعروبة في الجزائر وحد الجزائريين وبرز بشكل واضح كقاسم مشترك لتطويق الأزمة اللغوية وما تعرضت له الايكولوجيا الاجتماعية اللغوية من قهر واضطهاد.

للمزيد راجع :

- عبد الله ساقور: نمو الشخصية القاعدية الثقافية وتفاعلها السلي مع الاستيطان - حالة الجزائر تحت الطبع ص (15 - 28) 2004.

- أحمد الخطيب : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحية في الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ص 17.18.56.

- أحمد طالب الإبراهيمي : من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية ترجمة حنفي عيسى (1962-1972) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. د.ت.

2. تم اعتماد آراء عالم اللغويات الفرنسي F. Deassure عندما قام بالتفريق بين اللغة الكلامية ولغة الكتابة، وهو لغوي متأثر كثيرا بعالم الاجتماع إميل دوركايم.

راجع مؤلفه : voir :

De Sassure. f (1949) : « cours de Linguistic General », 4^{ème} edition, payot, Paris, France.

Baskim, w (1974) course ingeneral.

Linguistics, collms glosgowu.k

وتوجد ترجمة إنجليزية لهذا المؤلف، راجع وانظر أيضا : see also :

المدقق اللغوي، نحواً أو صرفاً وبلاغة، فقد يوفق قليلاً في محيطه العائلي الضيق... كما أنه كطفل قد يحصل على بعض النجاح عندما يتلفظ عبارات هي بمثابة (لغة الكلام المبدع) ليضاف إلى رصيد العائلة اللغوي (تاوتاو مقابل "كاوكاو" وحدة مقابل "مخدة" وهكذا)، وقد يتدرج الإنسان في توفيقه اللغوي عند بذله لمجهودات معتبرة في هذا الشأن ليلبغ حد الاعتراف الاجتماعي له ككاتب ذي سمعة راقية أو رجل دولة يقوم بتعبئة الجماهير وإيقاظ مشاعرهما من خلال شعارات ثروته اللغوية. وهذا ما يحدث حالياً من إحياء لكل من اللغتين العربية والأمازيغية في الجزائر من خلال جمعيات المجتمع المدني كالحركة الثقافية البربرية MCB وجمعيات الدفاع عن اللغة العربية مقابل هيمنة اللغة العربية "الرسمية" على دواليب الإدارة الجزائرية وما يكتنف ذلك من خلافات بشأنهما لا يتسع المجال هنا للبحث فيها، حسبنا أن نذكر تلك الآثار التي يتركها ذلك الكاتب المرموق أو السياسي الملهم في اللغة وفي عالمه الأرحب والتي – تكاد حصيلتها – تقترب من الصفر في اليوم الأول من تركه لبلاغته الخطابية أو لقرينته الشعرية...

الخاصية الرابعة : السلطة الأخلاقية "Moral Authority"

اللغة جزء من السلوك الإنساني، وهي ضرب من العمل لا تحمي نفسها بقوة الإكراه فقط مثلما مر معنا، بل أن اللغة تدعي الحق في شرعية وجودها النابض بالحياة... تأسعه حموسه اجتماعيه ذات سحويه اعتبارية تعاقب منتهكيها بالتوبيخ تارة والإذلال طورا آخر... فالطفل الأجنبي الذي تعلم لغة غير لغته الأم قد يستمر في ارتكاب الأخطاء في لغة الكلام أمام أصحابها. فهو لا يختلف كثيرا عن ذاك القروي الذي يحمل

نبرة أو لحنا لغويا من منطقته، أو ذاك المجند الشاب الذي يفقد تقاليد اللباقة اللغوية مع رؤوسيه أو حتى ذلك الطليعي من النخبة المثقفة الذي يرتعش أمام كاميرا التلفزيون خوفا من ارتكابه أخطاء لغوية، حيث يشعر كل واحد منهم بالغربة عن المجتمع "Social Isolation" هذا ما يؤول إلى القول: أن اللغة وصناعتها أبعد ما تكون نقلا للفكر فقط، فهي تعبر "Express" وتقل "Transmit" وتتواصل "Communicate" مع الآخرين وتقضي إلى معان "Meanings" تنبض بالحياة. فهؤلاء المعذبون، شئنا أم أبينا، كلهم يشعرون بمعاناة وجودية ذات صبغة أخلاقية تتطلب منا أن نعيد لهم كرامتهم باعتبارهم، بشر لهم لغتهم فإنهم يخسرون مكانتهم في المجتمع، ولا يقتصر ذلك على العامة من الناس، بل يتعداهم إلى ذوي الأمر فيهم. فأكثر القادة والأمراء وحتى - الرؤساء - في العالم لا يجيدون لغتهم أو غيرها ... فقد أوردت وسائل الإعلام البريطانية سنة (1981) القصور اللغوي في إنجليزية الأمير "تشارلز" ولي عهد التاج البريطاني وأمير مقاطعة ويلز "Wales" التي يتحدث سكانها لغة "ولشية" "Welsh" تختلف تماما عن اللغة الإنجليزية وهذا التنبيه للأمير بتحسين مستواه اللغوي لأنه سيصبح في المستقبل الملك والرئيس الشرفي للكومنولث "commonwealth" وأنت تتابع على المباشر الندوات الصحفية للرئيس الأمريكي الحالي "جورج بوش الابن" الذي ينطق مصطلحات بصورة عفوية تثير استهجان مواطنيه قبل أولئك المعنيين بها مباشرة فقد استخدم مفهوم "Crusades" والتي تعني "الحروب الصليبية" في حربه على أفغانستان سنة 2001 أثار هذا المصطلح التاريخي "مشاعر المسلمين" مما حتم على هذا الرئيس "العفوي" في حديثه الاعتذار واعتبر ذلك "زلة لسان". بالمقابل تجند رجال الدين المسيحي والإسلامي

على حد سواء ووظفوا هذا المصطلح في قوالب روحية واستتفروا قواعدهم... وتستمر زلات لسان هذا الرئيس لأقوى دولة في العالم باستمرار وتثير الخلف في أوساط المجتمع الأمريكي والدولي على حد سواء.

الخاصية الخامسة : التأريخانية "Historicity"

تتحدد اللغة بوقائع حدثت ومازالت تحدث، وهذا معناه أنها وقائع تاريخية أيضا لها إطارها وتصوراتها ومرجعيتها الثقافية التاريخية. فاللغة العربية لها تاريخ¹ في هذه المنطقة أو تلك فنسبتها إلى الوسط التاريخي الذي ظهرت فيه وجدناها طبيعية وضرورية أيضا. فاللغة مرتبطة بالجماعة، وهي موجودة قبل وجود الفرد، فالفرد مثلما مر معنا يولد دون لغة ثم يبدأ في اكتسابها من الجماعة الأولية باعتبارها تراثا جماعيا، وليس له في هذا التراث المشترك من سبيل أو اختيار سوى مسايرتها والانخراط فيها بقوة مع بقية الشركاء والتفاعل معهم فالمتحدث باللغة العربية يرددها دون أن يعرف تجارب السابقين من الأجداد العرب العاربة أو المستعربة، ودون الحديث عن مساهمات كل من الأقوام الإسلامية ودورهم في تنميتها وإثرائها من ثقافة شعبية وفنون وشعر ملحون... فاللغة إذا سيل جارف يعبر الزمن (التاريخ) وأن من يركب يمه لمدة ما قد تطول، أو أولئك الذين يقعون بمحاذاة شواطئه، لا يتورعون عن قذف بعض الشوائب (غشاء) فيه، فهذه الشوائب غالبا تترسب في القاع أو يقع تحللها رأسا. وقد تتجمع هنا وهناك

1. لمعرفة معنى "العرب" ومن هم وما قيل عنهم أنظر: عمر رضا كحالة مؤسسة الرسالة ط I بيروت لبنان 1974.

وعن تأثير العرب في الحضارة الإنسانية.

أنظر: عباس محمود العقاد : "أثر العرب في الحضارة الأوربية"، دار المعارف للطباعة والنشر، مصر 1964.

بطريقة أو بأخرى، حيث يقع صرفها جميعا بعيدا لمدة تزيد أو تقصر، وعادة ينتهي بها المطاف في محيط النسيان...

نقاش :

نتفق مع مصادرة "كارل كروس" حول اللغة ومدى تحكمها في الحياة الاجتماعية، والواقع أنه توجد عدة لغات، بالإضافة إلى عدد هائل من الناطقين بها، وهناك عدد من المؤسسات المجتمعية القاعدية تؤكد وجود حقائق عن اللغة لا تظهرها سواها من الوظائف، أو هي لا تظهرها بذات القوة والموضوعية، فهناك لغة الانتخاب والمراسم ومفردات وتعبيرات مستعملة في السلم والحرب والسياسة والاجتماع والفكر والعلم الخ. هذا أمر بديهي عند مقارنة لغات الثقافات الوطنية، فالعالم الناطق باللغة الإنجليزية يختلف جذريا عن العالم الناطق بالفرنسية، ويختلف عن ذلك الناطق بالعربية أو الصينية أو غيرها... فعلماء اللغويات والتاريخ وعلماء الانثروبولوجيا الثقافية تحملوا كثيرا عبء اللغة في محاولة منهم لتبيان الفروقات بين هذه اللغات، غير أن علماء الاجتماع معنيون أيضا بذلك في تحليلاتهم السوسيولوجية. وتبدو هذه الفروق واضحة في العالم "المحيط" حسب مقولة "Wittgenstein" إن لغتي تحدد بدقة معنى عالمي لكن كيف ولماذا؟

إن غالبية الأمم تعتز بلغتها، وتريد تنميتها بكل الوسائل المتاحة، غير أن اللغة تنفصل عن المجتمع وتتأثر بما يحدث فيه؛ فعلى مستوى الجامعة مثلا يحاول الأستاذ جاهدا تصويب الاختلالات اللغوية في البنية الفكرية للطلاب الجامعي، من خلال الخبرات التي تراكمت لديه عبر السنين وتمثلت أساسا في اهتزازات هذه البنية التي هي، حجر الأساس، في التحصيل

المعرفي والتناغم الاجتماعي. ولقد يأتي الطالب إلى الجامعة ولم يتلق تدريباً كافياً عن مميزات الفكر العلمي والعلم وعلى وجه الخصوص، مفتقداً الدقة عندما يعبر لمطابقة فكرة أو رأي مع الحقيقة أو الواقع والتحرر من الخطأ وتسيطر عليه آفة الذاتية ويبالغ في تقدير ذاته كطالب متميز دون البرهان على ذلك... وهو يفسح مجالاً واسعاً للتحيز الثقافي وتراه يستعجل الحكم على الأمور قبل الوقوف تماماً على حقيقتها نتيجة لخبراته التعليمية أو لتجاربه الشخصية السابقة وما تتركه الأحداث خاصة، السياسية منها، من رواسب في شخصيته وشحنه بشحنات انفعالية (انفعالات ذاتية، غالباً تتسبب له الوقوع في الخطأ عند الحكم).

فكلما حاول الأستاذ مراجعة ما كتبه الطالب على ورقة الامتحان أو إعداد مذكرة تخرج أو حتى عند القيام بكتابة أطروحة في الدراسات العليا كثيراً ما نجد المترشح اجترارياً في عقله، وكأنه يتحدث عن كلام حرام قوله يحاول تجنبه أو تقنيته بصورة أو بأخرى فالطالب الجامعي إذن يعكس البنية الذهنية المتخلفة بحيث يصعب محاصرتها وعلاجها على المديين القصير والمتوسط. فالطالب بحاجة ماسة إلى تعلم الدقة واجتناب الذاتية، والتخلي بالنزاهة العلمية وبالتنظيم (راجع خير الله عصار : 1993 ص: 37-53).

تلك هي نقاط قابلة للحوار والنقاش، لكن لا يسعنا سوى التأكيد على أن موضوع علم اللغة الوحيد والصحيح هو اللغة معتبرة في ذاتها ومن أجل ذاتها كما يقول (F. De SASSURE : 1949, P 317) ولكننا كناطين بالعربية التي وسعت كلام الله حيث قال حافظ إبراهيم على لسانها :

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية وما ضقت عن أي به وعظات

ككيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنميق أسماء لمخترعات؟

نتعرض اليوم إلى امتحان عسير حد المعاناة الوجودية، فالصورة المثلى والناصعة للعربية في ترويضها ومن ثم ترشيدها للعالم لم تكن كذلك في تصورات ومواقف الآخر/العدو أو من يرعى مصالحه في الداخل ... وتلك هي المعضلة التي مازالت قائمة بين دعاة الحداثة والأصالة في بلداننا¹ فهل

1. لا أحد ينكر ما للاستعمار الاستيطاني من تأثير مدمر للإيكولوجية الاجتماعية - اللغوية وما يحدثه من واقع "فوضى" ينال من بنية اللغة المغزوة مطعنا ... ولقد قبلت النخبة الفرنسية التي تحالفت مع الثورات التحريرية في بلدان المغرب العربي، اللغة الفرنسية" واعتبرتها مكسبا أو غنيمة حرب Booty (Butin) قابلة للاستخدام/عامل حامل للتنمية الاقتصادية في المحيطين القومي والدولي وتوازيا مع ذلك، ترتفع أصوات في فرنسا تندد بالنظم التقليدية في المجتمع المغاربي الذي يجسد الثقافة الإسلامية "المتخلفة" والمقاومة للاختراق الثقافي الغربي في الوقت ذاته ... والمطلوب فصم عراها من الداخل وتذجينها لتغدو قابلة للتنمية الاقتصادية وما يترافق معها من أساليب وقيم غريبة... ويكشف الطرف الحاضر/الغائب (الاستعمار) عن استنزافه "للذكاء المغاربي" ويجني ثماره دون تكاليف تذكر ... فيمجرد اندلاع أعمال العنف السياسي في الجزائر مثلا، بداية التسعينات من القرن المنصرم شجعت السلطات الفرنسية النخبة الجزائرية "الفرنسة" والتي - استنزف فيها الشعب الجزائري موارده المحدودة غداة الاستقلال على الهجرة إليها وتحلى هؤلاء "التحديثيون" عن شعبهم في أحلك ظروفه ... وود كثير منهم الموت خارج الوطن، بل هناك من أوصى بدفن رفاته/حرقها في فرنسا الأم... فتماهي "Identification" هؤلاء بقاهرهم التاريخي ألغى ظلم التاريخ لشعبهم بالتمكين لهم، لجماعة، استيعابا أو تمثلا في فضاءات الثقافة الفرنسية والإعجاب بكائناتها الميتافيزيقية... وهو ما جعلهم يكرهون ذاتهم الأصلية (العربية) وحذا حذوهم في الهجرة آلاف من الناس، حيث بدا هؤلاء البسطاء يبنشون وثائق الماضي الاستعماري للاستظهار بها، طلبا لحق في الأرض أو الدم أو العمالة لفرنسا وشهدت هذه الفترة ومازلنا، نشاهد، تلك الطواوير والمحاولات المستجدية لهؤلاء كي يغدوا "فرنسيسا" أو قريين منهم أمام قنصليات ومكاتب الهجرة والضمان الاجتماعي الفرنسية...

لكن الملفت للانتباه أن النشاط منهم رفعوا دعاوى أمام المحكمة الأوروبية في "سترازبوغ" ضد حكومتهم "الجزائرية" عندما باشرت هذه الأخيرة بتطبيق قانون تعميم استعمال اللغة العربية النموذجية "Standard" في الدوائر الرسمية.. وحكمت المحكمة لصالحهم وكان لهم ما ارادوا.. والغائب عن فطاحل اللغة الفرنسية أن مصطلح "التعريب" "Arabisation" في حد ذاته، مفهوم غربي مبتذل لتوجه سياسي لا يعدو كونه برنامجا للتحديث اللغوي "Linguistic modernization" يعني بتكييف اللغة العربية وفق مقتضيات إجرائية مصبوبة في قوالب ومعايير غريبة. فضلا عن ذلك، صرح هؤلاء "المستثيرون" المتمردون أن القانون المشار إليه آنفا هو

تستطيع لغتنا الجميلة رفع التحدي؟ وما هو الدور الذي يلعبه الاتصال الرمزي، ولاسيما اللغة في السلوك الماكرو - سوسيولوجي؟ وهل اللغة العربية لسان حال الثقافة العربية قادرة على تحرير ساحتها مما علق بها من شوائب في هذا الزمن الطاعي في القدرات العلمية والتحولات الاجتماعية - الثقافية النوعية؟ وهل أن المثقف العربي استعد فعلا للمواجهة والتحدي؟ تلك هي أسئلة يصعب الإحاطة بجميع أبعادها، فضلا عن أننا - كباحثين - لم ندرس، جديا، الثقافة العربية والإسلامية ولم نستعن بالتاريخ الثقافي لفهم وتفسير ظاهرة اللغة العربية، باعتبارها لغة حية، وربطها بالسياق الثقافي العام.

تلك هي، في نظرنا، النظرة القاصرة والرؤى المبتسرة لديناميات اللغة العربية وما تتمتع به من معاني القوة الدافعة لمستعملها وما تنشده من غاية مشروعة... وهذا يتطلب :

وصمة عار "Stigmatization" تستوجب من العالم المتحضر تجفيف منابع الخزي والتخلف (وصم العربية (Labeling)..

راجع :

- جمال العبيدي : التعريب والتناقضات الاجتماعية في الجزائر، في سليمان الرياشي وآخرين : الأزمة الجزائرية : الخلفيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. سلسلة كتب المستقبل العربي. إعداد مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان 1996.

- جريدة الوحدة، الجزائر، العدد (566) 1992.

- Ibrahim Muhammad, H (1989) Communicating In Arabic : Problems And Prospects. In Coulmas, F(ed) Language Adaptation. Cambridge, New York, Cambridge University press. Pp 39-59.

- Fitouri E (1983) Biculturalisme, Bilinguisme et Education, Neuchâtel De la chauxet Niestlé.

- Ngugi, W.T (1983) Biculturalisme, Bilinguisme et Education. Neuchatel De la Chauxet Literature. James Currey. London. U.K.

1. بذل محاولة جادة في فهم الواقع الاجتماعي الثقافي لهذه الأمة وكل ما يمكن الخروج به من إعادة قراءة وفهم للتاريخ الاجتماعي بكل أبعاده (منهج الفكر).

2. محاولة تفسير اللغة العربية وحيويتها تفسيراً علمياً من منطلق أنها ظاهرة اجتماعية.

3. إظهار العلاقة الواضحة بين المنحى التفصيلي (البناء النظري) والمنطلقات الأيديولوجية للتعبير عن التحيز الثقافي "Cultural Bias" للعروبة والإسلام (المنظور الثقافي) للتدليل على جوهر تلك الحركات الموحدة...

لنحاول الآن توضيح العلاقة بين اللغة والتعاليم القرآنية بالنسبة لتطوير مكونات الشخصية العلمية والمؤمنة التي نعتبرها الهدف الأسمى في الثقافة العربية الإسلامية من جهة، وتلاقيها مع نمط وحدة متكاملة من القوى تقرر السلوك الاجتماعي والفردى من جهة أخرى ويتضح ذلك من خلال الشكل رقم 1 المبين لعالم المخلوقات أن القرآن الكريم هو:

﴿كَتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة فصلت: الآية 3)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة يوسف : الآية 2)

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ (سورة طه : الآية : 113)

وعربيته تلك تفصح عن مضامين للتمركز الثقافي والتركيز على الجانب النشئوي والتاريخي للدين الإسلامي عند أمة العرب دون كراهية اتجاه الأمم الأخرى التي تختلف عنهم... وجاء القرآن مصاغاً بتعابير

محكمة حتى يتمكن السامع من تصور المضمون تصورا واضحا ودقيقا، تسوغ أغراضا محددة وتصفها، وتميزها بفروق لغوية هي - على جانب كبير - من الأهمية في الوضع والوجه، ما يجعلها مستعصية من حيث دقة أبعادها اللغوية.

ويتحدى القرآن الكريم كل المتحذلقين "Pedantic" للإتيان ولو بسورة منه حيث يجزم :

﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (سورة الإسراء: الآية 88)

فهذا الخطاب الديني/اللغوي هو عبارة عن بناء هندسي مدعم بمقادير، وفق مقاييس موزونة لغويا، وبحاجة إلى برهان لإثبات صحة/عدم صحة قوام شخصية الإنسان المسلم (نمط الشخصية القاعدية الثقافية). وبذلك تغدو الآيات هي الأخرى إحدى صنوف العلم تجمعت مكونات بنائها بمقدار ونفذت وفق مقاييس لغوية مضبوطة... أي أن الخطاب التبليغي تمسك بخصائص اللغة العربية في الإسناد وفي الوجه والفروق والموضع حسب المقاصد، وما يتطابق معها، وصفا وتسويغا، لكل من المسند والمسند إليه في هذه اللغة الخالدة بإعجاز قرآنها "Miraculos Aspect" (انظر: عبد القادر الجرجاني: 1991).

وغدت بذلك اللغة العربية ناقلة أدلة عقلية مشفوعة بشواهد واقعية، تعين على فهم المقاصد وتساعد على تقريب وجهات النظر وتكوين ذهنية تحليلية قادرة على الاستيعاب، بارعة في النقد، حاذقة في الاستنتاج ... ذاك ما استدعى قيام معركة عنيفة بين علماء جواز ترجمة القرآن من جهة، وبين

أولئك العلماء المنادين بعدم جوازها من جهة أخرى. وهي خصومة محورها عدم ضبط المدلولات وتحديداتها بدقة. لكن القرآن يضع دليلاً منهجياً يمكن الناس من التساؤل عن الوجود وكيفية تفسير هذا الوجود؟ وتتحدد موضوعية الإنسان المسلم لتجعله عاقلاً (حاملاً للغة) ينازع فيها الحق بالحق من أجل الحق وعملته في ذلك هو تلك الوحدات (الكلمات) المحددة في ضبط قضية ما، أو الحكم عليها. وهي عبارة عن معارف "Knowledge" تضم مجموعة من المعاني والمعتقدات والأحكام والتصورات الفكرية والمفاهيم حصلت لدى الإنسان العاقل (الناطق) نتيجة محاولاته المتكررة لفهم واستفهام الظواهر وما يحيط بها من أشياء. فمن المعارف ما يرجع إلى وظائف العقل مثل: التذكر والتخيل والحكم عند السرد أو الإيراد للقصص الديني، من خلال النظم الخارق لتلك الحوارات الهادئة (اللغوية) في مناظرات وسجلات الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى ومحمد عليهم السلام. وهي أخبار (معرفة) تتوجه إلى العقل وتطالبه بالتفكير والتدبر والتذكر. فضلاً عن ذلك، هناك معارف ترجع إلى قوى خفية تسمى بالغريزة "Instinct" أحياناً التي يشترك فيها جميع بني البشر والحيوان وما يحركها من دافع حيوي لإشباع الحاجة وحفظ النوع "Survival" وهي حالة فطرية وعمياء تجهل كل الجهل الغرض الذي تسعى لتحقيقه. وتبدو بذلك مستقلة عن الخبرات والتجارب السابقة واللاحقة. ومن المعرفة ما يسمى بالإدراك الحسي "perception" المعتمد أصلاً على الاحساسات المباشرة. وهناك معارف مرتبطة بالحدس "Intuition" عندما تكون الذات المدركة لا تعتمد الخبرات والتجارب السابقة في التحصيل لترقي إلى مرتبة المعارف الإلهامية "Charismatic" والتي – تفيد بان العقل وحده – يتحلى بقوى خارقة وصفات نادرة وقدرات روحية ذات الخصائص الذاتية

من تعقل وإرادة وحرية ... غير أن القرآن يغلب الطابع العقلي ويناهض الطابع الغريزي في التفكير ، حيث ورد في القرآن الكريم :

﴿أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة الروم : الآية 8)

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾

(سورة الفرقان : الآية 13)

"وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ"

(سورة العنكبوت : الآية 43)

ويبقى المنهج العقلي الديدن الدؤوب لكل السلوك الذي يأتي به كل مسلم يقوم على التفكير والتدبر والتذكر ...

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (سورة الكهف : الآية 29)

ويتولى الشكل التالي صورة المجتمع الإسلامي – كمقولة عامة – بغض النظر عن واقعها الحضاري كتشكيل اجتماعي واقتصادي حسي.

فالموقف الفلسفي هنا موقف مثالي يرتبط بعدة أبعاد توليفية ويمثل القرآن (كتاب الله) الإطار المرجعي "Frame Of Reference" لعالم الوجود: الله، الطبيعة، الإنسان، المجتمع، حيث يستشهد علماء اللغة بالقرآن ويحتجون بكلماته ودلالاتها اللغوية وما يصدره العقل من ردود أفعال تناسب موضوعات الوجود ويجعلونه ميزانا للقياس... وتقوم "اللغة العربية" بوظيفة السيلة العصبية التي تتضمن عددا من الازدواجيات الأساسية التي تضفي على فلسفة الحياة الإسلامية مزيدا من التعقيد، وفي الوقت ذاته مزيدا من

الأهمية. ويتخذ إرجاع الأثر "Feed-back" هذا منحى التواصل الإيجابي والسلبى فالمعلومات (كلمات الله) التي يبلغها الخطاب الديني يبعث بها إلى كل من العقل ويختبر مدى قدرته (فعاليتها) على فهم الواقع الذي يفسرها وفقا لأوضاعه وظروفه وإمكاناته من ناحية، وتبعاً لنمط علاقته بالقرآن، إيماناً أو شركاً، من ناحية أخرى. إن ما يتلقاه الإنسان من لغة القرآن له ارتباطات قبلية وأخرى بعدية وتتمفصل مع الأبعاد المثبتة في المخطط ويتساق معها، إيجابياً، من مسوغة أن الله ﷻ هو الذي ركب الإنسان على هذه الصورة ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (سورة طه: الآية 50) وقد يكون التساق معها سلبياً عندما يكون رجوعها مطالباً بالتعديل أو التهذيب ضمن صيغة (عدل، صحح، قوم...) لما تتمتع به النفس البشرية من نوازع الخير والشر ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (سورة الشمس: الآية 8).

وهنا تجدر ملاحظة أن السلبية لا تتضمن إحياءات غير مطلوبة، كما يدل السياق اللغوي لها بل على العكس من ذلك فإنها لا تختلف بالنتيجة النهائية عن التغذية الإيجابية حيث يتضافران معا لتحقيق مزيد من الضبط والفعالية في صقل شخصية الإنسان المسلم لكي ينعم بالسكينة والاطمئنان بعيداً عن كل مثيرات الإيذاء والتوتر... فعندما نستمتع إلى ترتيل القرآن أو الإنشاد نلمس وجود ترتيب لتتابع الأصوات، والسجع والفواصل بحيث تنفذ هذه الكلمات إلى النفس دون استئذان... وتفصح كلمات الله عن ديناميات التغيير نحو الأفضل والخير وما تطالب به من إجراءات للتغيير كي يتحقق التوازن في الأمن والسلام. وبذلك يكون الدين لله وحده (تحقيق فعاليتها) أي

بواسطة اللغة يتلقى الناس ذاك الخطاب القرآني الموجه إلى الأمر المستعلي وما يصدره من النهي المقتدر ومن الإيجاز المقتصد إنباتا لقول خالق الكون وتساققه مع ضرب الأمثال ومع أساليب الترغيب والترهيب والحجاج والتبيين وما سوى ذلك... ليتخذ ثلاث صور هي: الشرك "Polytheism" وما يتصل به من إدراك مهزوز لقوة الخالق وحفظ النوع "Survival" وما يقترن به من قوة غريزية، وأخيرا الإيمان "Faith" المؤسس أصلا على الحدس والإلهام (العلم).

وهي أبعاد مشتقة جميعها من الواقع الاجتماعي، حيث يتوزع الناس بين طائفتي الشرك والإيمان عقيدا، وبين الخير والشر أخلاقيا، ولا يوجد بينهما مكان وسط (ظنيا).

وبناء عليه، تعبر العربية في خطابها القرآني عن شمولية خارقة "Nom reflexive Totalitarism" - يخضع لها الفرد المسلم، أو ذاك الناطق بالعربية أو أولئك المرددين للغة المسلمين، عن اقتناع أو خوف من قبيل تحية أو قسم أو آداب الحديث أو السلوك عند القبطي في المجتمع المصري أو المسيحي العربي في بلاد الشام مثلا... تلك هي سيطرة صارمة (ضبط اجتماعي) نجمت عن الرقابة الممارسة في احترام ثوابت العقيدة الإسلامية حتى - لو كانوا غير مسلمين - هب أننا نسأل مسيحيا عربيا في تقديره لشجاعة شارلمان وشجاعة خالد بن الوليد لفضل إلى قلبه خالد بن الوليد لتوكيد ذاته العربية وهو موقف يتشارك فيه العرب المسيحيون والمسلمون وكذلك الشعوب الإسلامية في ترديدهم للصلوات والأدعية أو عند التحية أو غيرها من آداب السلوك الإسلامي، وهذا يقود إلى القول بأن اللغة العربية

حية دوما في وجدان وأذهان العرب والمسلمين وتعبر عن هويتهم الحضارية والثقافية في الحرب والسلام والحياة والموت... وهذا من جهة، ومن جهة أخرى أن الخطاب القرآني بكلماته مبني على النظم الدقيق ويوضح أبعادا ويخفي وراءه أخرى هي غاية في الإبهام من قبيل حم، ويس... إذ تبدو صورا لنماذج من "الشيفرا" "التعمية" تتطلب من الدارسين لعلوم الدين استخراج المعنى (تفكيك هذه الرموز) لتغدو واضحة، إنها إحياءات تتميز بالإعجاز، وتتمتع الأبعاد اللغوية بالضبط الدقيق للاستعارة والكناية وأنواع التشبيه والمجاز والتجريد وكل ما تستطيع اللغة العربية الحية بيان أغراضه المختلفة، وسبر غور دينامياتها مثلما هو موضح في الشكل رقم 2 للتعبير عن الحياة الاجتماعية الفوارة "Social Effervescence" ومتطلباتها النفس – البيولوجية والاجتماعية والمعرفية.

وبلغة أكثر دقة، يلاحظ تداخل اللغوي مع الديني من جهة وامتزاج العاطفة الوطنية "العروبة بالعاطفة الدينية في شؤون السياسة العامة من جهة أخرى¹ وتتعدد الوظائف الاجتماعية للغة: فهي وسيلة للمبادلة حيث يتساقق أفراد المجتمع بدلالاتها اللغوية في حياتهم الاجتماعية بأوسع المعاني وأضيقتها وتساهم اللغة بمفرداتها وأحكامها ضبط ميزان لقياس قيم الأحكام على الأشياء وعلى الذات والآخرين فهي ذاك المعادل الحي. وبواسطة اللغة يحصل الفرد على معظم متطلباته وضروراته عند التخاطب

1. انظر :

- Arkoun, M. (1991) L'État au Magreb. Sous la Direction de C, et Y, la Coste, Le Fennec. Casablanca. Maroc.

- Ben Meziane Thalbi (2000) L'identité au Magreb. L'errance. Casbah Edition, Alger.

والتواصل مع الآخرين بما يفي إشباع حاجاته المادية والمعنوية، وينظر كذلك إلى اللغة باعتبارها وسيلة للوفاء، إذ تستخدم المفردات لترجمة ما يصدر عن الشعور واللاشعور في صميم الفكر والمجتمع... فضلاً عن ذلك فاللغة ناقلة للتراث الحضاري المشترك عبر الأجيال وتواصلها. وتغدو بذلك اللغة "كومنولثاً" ثروة لغوية مشتركة، تكتنز إبداعاتها وأسرار وجودها واستمرار حيويتها عبر المصحف ذي القيم الثابتة... وبذلك تعتبر اللغة العربية مصدراً للدخار لا ينضب ولا يتلف، ومستودعاً ضخماً للقيم المادية والروحية، ومباشرتها للرقابة (الضبط) على جميع مناحي الحياة الاجتماعية وتؤثر في طبيعة العلاقات الاجتماعية الواعية وغير الواعية وتضبطها...

باختصار تمارس اللغة العربية الحية ضبطاً اجتماعياً لأنها مؤيدة بتعاليم دين حنيف باعتباره نظرية حكمية تبقى على الأطر المرجعية لهذه العقيدة وتعلنه علناً في جو من الإجماع "Condenses" المفروض بحكم الولادة أو بالتعايش "Co - habitation" وتفرض إكراها "Coercion" على القول والفعل ليمس كل أفراد المجتمع المسلم. أي أن اللغة العربية ضرورة اجتماعية لها أسبابها لجعلها حية ليوم الدين. فالتكريم والتخليد لهذه اللغة جعلها وسيلة اتصالية وسيطة "Mediator" تبدد الغموض وتقض النزاعات بين العقل والوحي لينصرف الناس لعملهم الحضاري وعمارة الأرض والتمكين لهم فيها¹... ومهما بذلت من جهود فإن الإنسان يبقى عاجزاً عن

1. هناك مقارنة حديثة تفيد بتراطبات وثيق بين قيمة اللغة والأداءات الاقتصادية للمجتمعات اللغوية بشكل أو ثقل مما نتصور، بحيث أن نظرية الاقتصاد يمكن أن تفسر نظرية اللغة وتشكل الخريطة اللغوية للعالم بدلالة هذا الترابط الوثيق. للمزيد راجع :

تفسير خلود هذه اللغة... وهو موقف يقترب مع ما ذهب إليه ليفي شتروس (1962) وهو يعالج ظاهرة اللغة عند الإنسان وقد استخلص شاليمو (1974) آراءه كالتالي:

"Les expressions culturelles peuvent être ramenées à "un langage" (une structure) qui procède d'une syntaxe opérant au niveau de l'inconscient : Ainsi dans le système de parenté qui organise toute civilisation : les femmes jouent le rôle des mots dans la langue : elles ne sont que les éléments d'un ensemble significatif" (Chalumeau, J. L 1971, p, 82).

يمكن تحويل المظاهر الثقافية والتعبير عنها بأسلوب لغوي يستعمل فيه النظم (التركيب المنطقي) الصادر أصلاً عن العقل الباطن لدى الإنسان العاقل (الناطق). وتلك صورة تتناظر مع واقع القرابة التي تنتظم بها كل حضارة، حيث تشكل النسوة وحدات "للتبادل" "Exchange" مثلما هو الحال المنوط بدور الكلمات ووظائفها في بناء الإسناد والمسند إليه".

اللغة العربية جوهر الحركات الموحدة : "Arabic as Pan movement"

تضافرت مجموعة متشابكة من الاشكالات الفكرية والحقوقية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وأسهمت في نشأة جامعة الدول العربية سنة (1945) لمجابهة الاستعمار والتيقظ لاحتمالات عودته من جديد... وكانت الأمة العربية أولى الأمم أن تنشأ فيها الوطنية بهذا المعنى الحديث قبل نشأتها غداة الثورة الفرنسية، لأنها تنطلق من مقولة أن الدين لله والوطن للجميع.

(الأطروحات الحديثة : القومية الناصرية ولحزب البعث). غير أن هذه الأطروحات القومية تعرضت لامتحانات عسيرة رغم نجاحها في استقطاب الشارع العربي، وشروعها في برامج الإصلاح الاجتماعي (التنمية) وخوض حروب الاستنزاف مع أعدائها، وما ترتب عن ذلك من استنزاف لقدراتها خلال الخمسين عاما الماضية.

أما على المستوى الإسلامي، فقد ولد تنظيم دولي (منظمة المؤتمر الإسلامي سنة 1969) وغدا أكبر تنظيم سياسي بعد الأمم المتحدة. وفضلا عن ذلك، برزت في العالمين العربي والإسلامي ظاهرة الاضطرابات الاجتماعية التي توطرها حركات اجتماعية جديدة، لم تخبر تحدياتها السلطات المحلية أو الوطنية لتتخذ أبعادا دولية. يلاحظ هنا ذاك التداخل بين الدائرتين القومية (العربية) والدائرة الروحية (الإسلامية) وعلى أية حال ما يهم هو أن هذه التنظيمات أكانت، قومية أم روحية، ذات طابع رسمي أو مواز وإن تباينت . منطلقاتها الفكرية والنظرية الإيدلوجية . إلا أنها تشترك في تجربتي اللغة والممارسة للشعائر الإسلامية من جهة واحتكاكها بالغرب وحضارته عن طريق الاستعمار أو بحدائته المتمثلة في الاختراعات المادية من جهة أخرى. ولقد ود الاستعمار أن يكون الإنسان المسلم بغير دين سوى دين المعدات والوسائل المادية. لكن هذه الشعوب بنخبها فهمت بعض الحقائق وأدركت ما يوجد من علاقات سببية لتخلفها واستعمارها. وصمد الإسلام في هذه الأوطان المستعمرة وحاولت مختلف النخب تحميص (Emulsion) أو استتساخ النظم الاجتماعية الغربية وجاءت في شكل تجارب للتحديث (Modernization) كتطبيقات الليبرالية أو الاشتراكية أو تلك

التوجهات التوفيقية تارة، والتلفيقية طورا آخر. واجتهد المجتهدون بتعريب المصطلحات وتعلم الناس بعض ما لا يعلمونه عن الطبيعة والإنسان وسبل تكريمه ومساواة أفرادها، وطرق تحصينه ضد التحقير أو العدوان عليه أو ذوبانه في أنظمة اجتماعية ترفضها الطبيعة البشرية من جهة، وتطابقها أو تقاطعها أو تقابلها أو تناقضها مع خصائص شخصيته القاعدية الثقافية من جهة أخرى.

لقد استبشر الناس خيرا بالحادثة وبقدراتها على تسخير الطبيعة لصالح الإنسان، لكن عند نقلها، ومحاولة زرعها في تربة هذه الأوطان الناشئة تحولت إلى ثعبان بيد الساحر... فبدلا من ترقية نوعية الحياة "Quality of life" في هذه المجتمعات المختلفة غدت هذه الحادثة عبئا ثقيلا على كل المعنيين بالتغيير..... حيث لم يكشف بعد لا عن التصورات، الحقيقية أو الوهمية، لهذه الظاهرة، من ناحية، ولا على مستوى رضى المعنيين بها في هذه المجتمعات من ناحية أخرى. فالتشويه المقصود والغير مقصود للتحديث ثور معظم فعاليات هذه المجتمعات على ذاتها وعلى العلم المحيط...

وفي غمرة الفوران هذا استفاق الناس بل تفاجؤا بظاهرة جديدة هي العولمة الثقافية "Cultural globalization" التي لم يستعدوا لها حسبنا أن نبين بعضا من مظاهرها وممارساتها، حصرا على بلاد المسلمين. فعند تحليل نطاق التأثير المصحوب بالضغط على سيادة هذه الأوطان، والذي يكمن أساسا في مشكلتين :

- الأولى : هي مبلغ التأثير الذي تستطيع هذه المركزية الثقافية "Cultural Centrality" ممارسته على عملية صنع القرارات وعلى صانعي القرارات أنفسهم في هذه الأوطان الحبلى بالمشاكل.

- والثانية : هي محاولات استخدام هذا التأثير وكيفية توجيهه لتغليب مصالح الأمم القوية وما يترتب عنها من آثار، والتي تقيد حصرا بإذلال العرب والمسلمين وتدجينهم من خلال :

1. سيطرة القانون الدولي الجديد الذي قوامه نشر وتوزيع الثروة والقوة بشكل غير متوازن، ويفصح بالقول والفعل على تعطشه للظلم والعدوان على هذه الأوطان الآمنة.

2. التبشير بالمنافع المباشرة وغير المباشرة (على الأمد الطويل) لهذا النظام الدولي الجديد، وما يرتبط به من موضوعية الحياة الاجتماعية التي تمتد آثارها إلى مختلف الأنشطة والميادين المجتمعة الأخرى من سياسة وسلوك ديني وأخلاقي، إلخ..

فالتحديث المادي وتساوقه مع المذاهب لمست وجدان شرائح اجتماعية محدودة، وهو ما نبه الغالبية إلى فهم متجذر للوطنية والدين وفهم العلاقة بين الفرد وبين خالقه، والعلاقة بين الفرد والدولة، والعلاقة بين التنظيمات الدولية وغيرها من التنظيمات.

باختصار يقر القرآن الكريم أن المسلمين اخوة ومبادئهم ومنافعهم وتطلعاتهم وقلوبهم واحدة... وان حال المسلمين اليوم وأوطانهم لا يرقى إلى هذا التطابق وهو ما قد تتبأ به رسول الله ﷺ فقد قال لأصحابه يوما : "كيف

بكم إذا اجتمع عليكم بنو الأصفر¹ اجتماع الأكلة على القصاع؟ فقال عمر رضي الله عنه : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله أم من كثرة؟ قال: بل من كثرة ولكنكم غشاء² كغشاء السيل قد أوهن قلوبكم حب الدنيا" ولرد بني الأصفر (المركزية الغربية بشقيها الأوربي والأمريكي) يتطلب الأمر من أمة الإسلام أن تضع كلمة "الحق" التي اعتادت على سماعها خمس مرات يوميا دليلها والتي – تحيا في السياسة والقانون – إلا إذا وضع صاحبها حياته فيها، وهذه حقيقة سياسية سامية لدى العرب المسلمين وأحرار العالم عامة علماء المسلمين ومفكرهم هو حديث عن "نهضة" الحضارة العربية – الإسلامية.

خلاصة :

تم التركيز على وظيفتين أساسيتين تؤديهما اللغة في الحياة الفكرية للناس. لقد عرضنا اللغة باعتبارها وسيلة للإدراك الحسي "Objectification of Reality" يستطيع من خلالها المتكلم أن يعبر "Express" وأن ينقل "transmit" ويتواصل "Communicate" مع الآخرين ويقيم علاقات ذات معاني "Meanings" لما هو محيط به... وجاءت الوظيفة الثانية لتركز على مبدأ التفسير والتسوية للواقع "The Interpretation, and Justification, of Reality" من منطلق أن اللغة أداة عاكسة للفكر، أو وسيلة لتجسيم الفكر أو التعبير عنه.

تم شرح لخصائص اللغة باعتبارها مؤسسة اجتماعية وما تتميز به من إظهار "Externality" وموضوعية "Objectivity" وقوة إكراه "Coerciveness"

1. بنو الأصفر: هم الروم ومن والأهم من الأوربيين.

2. الغشاء : ما يحمله السيل من الهشيم ونحوه مما تحطم وتعفن ولا قيمة له ولا قوة فيه.

وسلطة أخلاقية "Moral Authority" مدرجة جميعها في إطار تطوري دينامي (تاريخاني) "Historicity" وتمت مناقشة مؤسسة اللغة العربية في ضوء الواقع العربي وما تتعرض إليه هذه اللغة من ضغوطات داخلية وأخرى خارجية يصعب محاصرتها وأن التنمية اللغوية لا تكمن في التغريب اللغوي أو التحديث اللغوي بقدر تعليم أبنائها عربية سليمة ولكنها منفتحة على لغات العالم دون استثناء وأن الفكر العربي اللغوي ليس مستقيلاً عن هذا التكيف مع ضرورات الحضارة السائدة...

المراجع :

- القرآن الكريم.
- عبد القاهر الجرجاني : "دلائل الإعجاز"، سلسلة الأنيس، موفم للنشر، الجزائر، 1991.
- خير الله عصار: "مدخل إلى قضايا التعلم في العلوم الاجتماعية" الطبعة الأولى، دار طلاس، دمشق، سوريا، 1993.

- Lévi-Strauss, C (1962) : «*la Pensée Sauvage*», Plon, Paris, France.

- Chalumeau J.L, (1974): «Où en est la France?»
La pensée en France, Dessarte A. Foucault.

- Gellner E. (1964) : «*Crisis In the Humanities*», Ed. Plon,
J-H. Penguin books.

- ولمزيد من المعلومات راجع :

- Bernstein B. (1960) : Language and Social class. British
language journal of sociology, pp. 217 pf.

- Bernstein B. (1962) : Social class, Linguistic codes and
Grammatical Elements “ language and speech”.

- Gellner f. (1968) Words and Things. Penguin Books,
London, U.K .

- Douglas M. (1973) Rules and Meanings, Penguin Books,
London, U.K.

- Wilson B. (1970) Eds Rationality. Oxford Basil Blackwell, U.K.